

الأفضية الذهنية في الخطاب القرآني من خلال نماذج *The mental spaces in the Quranic discourse (through models)*

د. عمارة الجداري¹ *

¹ جامعة المنستير- تونس

تاريخ الارسال : 2020-12-28 ؛ تاريخ القبول : 2021-03-10 ؛ تاريخ النشر : 2021-05-03

ملخص:

يظل النصّ بشتى تعاريفه في حاجة إلى مداخل تبرز فتيّاته وتوضّح مضامينه وتحقّق أبعاده. وليس كالنصّ القرآني في تنوّع معانيه وتشكّل مضامينه وترامي أبعاده الدلالية وصعوبة تحديده. فهو الخطاب الصعب التحديد، الرائد في المفارقة عن سائر الخطابات. وإنّا في هذا الشأن لباحثون عمّا يناسب هذا الخطاب من مداخل تجلو عن كنهه في شتى مستويات بنائه وتحليلها. وإنّا لنرى في نظرية الأفضية الذهنية التي تتبّنى البحث في الفضاء اللغوي من حيث هو فضاء ذهنيّ. وتعود إلى الباحث اللسانيّ فوكونيي [Fauconnier] منذ 1984 بعد أن مهّدت لها السبيل أعمال اللسانيّ نونبرغ [Nunberg] سنة 1978. وتعتمد هذه النظرية اللغة واستعمالها بناءً ذهنيًا لفضاءات وعناصر وأدوار وعلاقات بين فضاءات. وقوام التواصل حسب وجهة النظر نفسها يتمثّل في بناء فضاءات متشابهة أو متماثلة... فتسعى إلى دراسة كميّات بناء الفضاءات والعلاقات بينها... والنصّ القرآنيّ غنيّ بالفضاءات اللغويّة التي تنزّل فيها الكلمات في علاقة بالبناءات الذهنيّة [Constructions mentales] التي ينشئها المتكلّم والمخاطب. ورغم الجهود النظرية المبذولة من بحث وترجمة فإنّ الأعمال التطبيقية على النصوص مازالت تحتاج مزيداً من الدقّة والتركيز. ولعلّ ذلك كان دافعاً لنا لاختيار هذه النظرية في مقارنة نماذج من الخطاب القرآنيّ. نبحت فيه العملية النفسية لبناء المعنى عند الناس.

الكلمات المفتاحية: فضاء، ذهن، معنى، قرآن.

Abstract:

The theory of mental spaces relies on language and its use as a mental construct of spaces, elements, roles and relationships between spaces. The basis of communication according to the same point of view is the construction of similar or similar spaces ... so it seeks to study the ways of building spaces and the relationships between them...

The Quranic text is rich in linguistic spaces in which words descend in relation to the mental constructs that the speaker and the addressee create.

Despite the theoretical efforts made through research and translation, the applied work on the texts still needs more accuracy and focus. Perhaps this motivated us to choose this theory in approaching models of the Quranic discourse. In it we discuss the psychological process of building meaning for people

Keywords: space; the mind; the meaning; the Quran.

1- المقدمة:

يتطور البحث اللسانيّ منذ نشأته لإيجاد مداخل مناسبة لقراءة المعنى وفهم تشكّله في ذهن المتكلم قبل تنزله في قناة التواصل مع المخاطب. وهو ما استدعى تجددًا وتداخلًا بين اللسانيّات وعلوم معرفيّة أخرى لعل أهمّها علم النفس وعلم النفس المعرفيّ وعلوم الأعصاب وعلم الذكاء الاصطناعيّ...

ومردّ ذلك إلى أنّ التحليل اللسانيّ الشكليّ قاصر عن إدراك الكثير من الأبنية اللغويّة وتفسير اشتغالها والاهتمام إلى دلالاتها وأبعادها. فالدلالة في الأبنية اللغويّة معطى مجرّد وزئبقيّ وعملية فهمها لا تُدرّك بسهولة ومضمونها غير محسوم ولا مفصليّ... وهو ما يدفع بالبحث اللسانيّ إلى أن يجعل علاقة اللغة بالفكر ثم علاقة اللغة بالدماغ طرحًا أساسيًا رئيسًا. فكان اهتمام المنظرين في الفكر اللسانيّ منصبًا على إيجاد حلول للعوائق الماثلة أمام تفسير عمليّة إنتاج المعنى وتأويله في مختلف مراحله ومظاهره (إنتاج المعنى) سواء في الخطابات اللغويّة أو غير اللغويّة وقد تشكّلت هذه الأطروحات متتابعة تاريخيًا ومتتالية متراكبة بعضها من بعض نقداً وإفادةً وبناءً على المكتسبات السابقة.

وتقوم النظريّات المتأخّرة على منهج علميّ يتخذ من المقاربة النفسيّة والمعرفيّة أساساً لها في تفسير إنتاج المعنى. فمجالها الذهن أو الدماغ لذلك يستدعي كثيراً عبارات مثل التمثيل الذهنيّ والفضاء الذهنيّ والإسقاط وسيروية المعنى في الذهن أو الدماغ والتصور. ولعلّ من النظريّات المتتالية المتفاعلة مع إنتاج المعنى في مقاربات عرفانيّة نفسيّة تمثّلت في نظريّة الدلالة تصوّريّة، ونسقيّة التصوّرات الاستعاريّة، ونظريّة الأفضية الذهنيّة.

ونظريّة الأفضية الذهنيّة واحدة من هذه النظريّات التي نشأت في فضاء عرفانيّ نفسيّ باحثة في الفضاء اللغويّ من حيث هو فضاء ذهنيّ. وتعود إلى الباحث اللسانيّ جيل فوكونيائي [Gilles Fauconnier].

وسنحاول اتّباعها في محاولة إدراك إنتاج المعنى في نماذج من النصّ القرآنيّ...

1-1- دواعي اختيار المبحث مدوّنةً ونظريّةً:

يُعتبر إنتاج المعنى في الخطاب القرآنيّ مرّميّ صعب الإدراك. فقد لا يُقصد المتكلم فيه حول إنتاج المعنى للطابع القدسيّ الذي يحقّه. ولعلّ التحليل اللسانيّ الشكليّ إعرابًا ولغةً وأحكامًا قاصرٌ عن إدراك المعنى وإدراك

البنية اللغوية لإنتاجه... فكانت بالنسبة إلينا في البحث نظرية الأفضية مهمة في مقارنة نماذج من النص القرآني... ومن ثمة ارتسمت لنا دواعٍ لاختيار المدونة من جانب ودواعٍ لاختيار النظرية المناسبة من جانب ثان...

1-1-1- دواعي اختيار المدونة:

يظل النص القرآني ثريًا بالتعابير المجازية والاستعارية ومتأثرًا بالسياقات والمقامات في إنتاج المعنى. ومهما قوربت بنظريات لغوية تقليدية لن تصل إلى المرامي والحواف التي تحيط بإنتاج المعنى في الخطاب القرآني. فالنشاط اللغوي الذي يتحكم في الخطاب القرآني يُعدُّ نشاطًا لسانيًا ذهنيًا يفتح على عديد المقامات والسياقات وتوظف فيه العديد من الروابط [Connectors] العرفانية لتأويل الأبنية والاهتداء إلى الدلالة المقصودة... والنص القرآني حَمَلٌ دلالات شتى ويحتكم إلى بنية لغوية تفاعلية مفتوحة تتحقق بمسار تأويلي يجري في فضاءات ذهنية منطلقها متكلم نموذج ومنتهاها مخاطب في مقام ما...

والخطاب القرآني مقصد العديد من الباحثين في اللغة واللسان بشتى فروعه. لكن نكاد نجزم ألا وجود لمحاولة تطبيق نظرية الفضاءات الذهنية في النص القرآني... بل إنَّ البحث في هذا الخطاب كان محاولة لإبراز بعض تشكلات المعنى لغويًا وبيانيًا... دون الخوض في مسألة إنتاج المعنى والبنى اللغوية المتاحة في ذلك... فكانت مختلف هذه النقاط فضلًا عن العزوف عن البحث في القرآن من هذا الجانب دوافع لاختيارنا الخطاب القرآني لمحاولة تطبيق هذه النظرية.

1-1-2- دواعي اختيار نظرية الأفضية الذهنية:

نتوسل في هذا المبحث نظرية الفضاءات الذهنية لمحاولة الوقوف على القدرات العرفانية والطاقة الخلاقة للمتكلم ومحاولة الوقوف على كيفية تشكّل المعنى في الأبنية اللغوية المنجزة. فكانت نظرية الفضاءات الذهنية بطبيعتها العرفانية كفيلة بتأويل الأبنية اللغوية وفهم مقصد المتكلم. ومن ثمة إمكان النظر في تكون تلك الأبنية في الأذهان قبل خروجها إلى التحقق اللساني. فيتسنى لنا النظر في استعمال نظام اللغة ومحاولة تفسير هذا الاستعمال والوقوف على العمليات الذهنية التي تسبق ذلك الاستعمال.

2- نظرية الأفضية الذهنية:

تُعتبر نظرية الفضاءات الذهنية [Les espaces mentales] نظرية نفسية عرفانية لصاحبها الباحث اللساني الفرنسي جيل فوكونيائي [Gilles Fauconnier] ويخصّها القاموس الموسوعي للتداولية¹ بمقال يفسّر ملاحظاتها وتمشياتها². ولئن كانت تهتمّ بنشاط العمليات الذهنية بدلا من دراسة المشاعر أو الاضطرابات العقلية فإنّها تتعامل مع اللغة باعتبارها بناءً ذهنيًا مجردًا لفضاءات وعناصر ولأدوار وعلاقات بين فضاءات...³ ولعلّ في ربطها في المقال الذي تضمّنهُ القاموس الموسوعي للتداولية بالإحالة دلالة على أنّ هذه النظرية تقوم في ما تقوم

عليه ربط الفضاءات الذهنية ومكوناتها بالفضاءات الواقعية لفظاً أو المتخيلة صورة. وتوسل منظورها بالربط بين فضاء أب وفضاء ابن⁴ أو فضاء ابن وفضاء قرين⁵. وهذه النظرية نشأتها ومبادئها العامة...

2-1- نشأة نظرية الفضاءات الذهنية:

نشأت النظرية العرفانية عامة في ظلّ قصور الأبحاث اللسانية الشكلية. إذ أنّ اللسانيات عامة قاصرة عن إدراك إنتاج المعنى. فقد "ثبت عند التداوليين والعرفانيين أنّ المدخل الشكلي التركيبي وحده غير قادر على تحقيق التطابق بين المقول والمقصود بالقول لأنّ الحسابات الشكلية والمنطقية الرياضية قاصرة عن استيعاب تلك الأبنية لا سيما في الأبنية المجازية التي تتعقد عملية فهمها ويتسع فضاء تأويلها"⁶ ولعلّ مردّ هذا القصور في الأبحاث اللسانية الشكلية إلى أنّها تتجاوز عديد المستويات الخارجة عن مجال اللغة من مقامات وسياقات مختلفة قادرة على إفادة المعنى وتشكله وبنائه وتقوية كفاءة تفسيره. وتكفي بالتوازي الدلالي القائم على التشابه والتماثل والتوازن والحال "أنّ الاعتماد على مبدئي المحايثة [Immanence] والقالبية [Modularité] لم يعد يحقق المطلوب"⁷. وفي خضمّ هذا القصور نشأت المناويل العرفانية تقارب المعنى وتبحث مستويات تشكل المعنى وإنتاجه وترتبط ارتباطاً وثيقاً بانتظام الفكر فقد "مثل اكتشاف الترابطات العرفانية أو إعادة اكتشافها في منتصف السنوات 1970 منطلقاً لأبحاث عديدة في طبيعة الدلالة اللغوية وفي علاقتها بانتظام الفكر"⁸. وما هذا الاكتشاف إلاّ سعي للإجابة عن عديد الأسئلة التي عجز التناول المنطقي الشكلي للدلالة عن الإجابة عنها، منها ما تعلق بالدلالة وإنتاج تشكّل بنيتها اللغوية. فكان "التخلي تدريجياً عن التناول المنطقي الشكلي للدلالة ليقوم الدرس الدلالي على الأبنية العرفانية التي تساهم العبارة اللغوية في تشكّلها"⁹. وتشكّلت تبعاً لذلك الوظيفة الإحالية التي تعود إلى الباحث اللساني الأمريكي نونبرغ [Nunberg]¹⁰ سنة 1978. وهي "الوظيفة التي تسمح بإقامة علاقات بين أشياء مختلفة سواء أكانت هذه العلاقات مندرجة في علم النفس أم في الثقافة أم في التداولية"¹¹. وهذه العلاقات في قيامها تستدعي أمثلة معينة يقدّمها نونبرغ من قبيل "[نموذج من] و[سبب من] و[ما لك ل] و[جزء من]"¹². والطابع الذهنيّ في هذه الوظيفة يتجلى من خلال كيفية تحليل هذه الوظيفة حيث أنّ للأشياء وجهين: وجه واقعيّ ووجه متصوّر عنه في الذهن. وهذه الأشياء لها صور متنوعة تنوّع الواقع البشريّ كالنصوص اللغوية المنتجة والمكونات الثقافية والتاريخية والاجتماعية...

وتبني فوكانيي هذا المفهوم وغير اسمه إلى الوظيفة التداولية "فإنّ الوظيفة التداولية تسمح بالمرور من فضاء إلى فضاء آخر، والعملية التي يتمّ من خلالها هي عملية [التعيين: (Dénotation)]"¹³. ويعرّف فوكانيي التعيين بـ "إذا كان هناك العنصران (في المعنى الأعم) <<أ>> و <<ب>> مترابطين من خلال دالة تداولية ر(ب=ر(أ)) فإنّ وصف <<أ>> يمكن أن يفيد في تعيين موافقه <<ب>>".¹⁴ وفي ما يصطلح

عليه فوكنيائي فإنَّ <<أ>> هو قاذح و <<ب>> هو هدف و [ر] هو الرابط. ومن ثمة نشأت نظرية الفضاءات الذهنية التي تميزت بمبادئ عامة.

2-2- المبادئ العامة لنظرية الفضاءات الذهنية:

ينطلق فوكنيائي من مبدأ رئيس يتمثل في اعتبار اللغة واستعمالها "بناءً ذهنيًا مجردًا لفضاءات وعناصر ولأدوار وعلاقات بين فضاءات. وقوام التواصل يتمثل في بناء فضاءات متشابهة أو متماثلة... وغرض هذه النظرية دراسة كميّات بناء الفضاءات والعلاقات بين الفضاءات. ولا يعتدّ في نظرية الفضاءات الذهنية بالعلاقة بين الكلمات والعالم إنما منتهى ما يُعنى به هو العلاقة بين الكلمات والبناءات الذهنية التي ينشئها المتكلم والمخاطب"¹⁵. فيؤسّس فوكنيائي بذلك رأياً مختلفاً في الإحالة والتعيين والوظيفة التداولية وينشئ مجالاً جديداً يحكمه الرابط. وفوكنيائي "يجد مدخلاً يثبت ضرورة البحث في ما يمكن للذهن أن يقيمه من عمليات ربط في مختلف السياقات..."¹⁶ فالبنية اللغوية في أساسها متشكّلة تشكّلاً سياقياً مقامياً.

والدراسات العرفية عموماً تثبت أنّ البشر يهتدون إلى نفس المعلومات ويعالجونها بطرق مختلفة في سياقات ومقامات مختلفة وفرضية آثار الأولية [Priming effects] في علم النفس دليل قاطع على ذلك¹⁷. وباعتبار أنّ نظرية الأفضية الذهنية منوال في العلاقة بين الدلالة والعرفنة وتتوسّل التعيين والإحالة بمحامل جديدة تنسب إلى الباحث اللساني فوكنيائي فإنّها تحتاج جملة الروابط بين الفضاءات. فـ"نظرية الأفضية الذهنية تشكّل الفضاءات من خلال مجموعة من العناصر تربط بينها علاقات في بنية ما"¹⁸ فيحتاج المتكلم في التعيين باعتباره وظيفة إحالية تداولية إلى صياغة فضاءات لها بناؤها الذي يدرك بوجود روابط مختلفة. ولفهم هذه الروابط التي يعجز التحليل اللساني عن إدراكها وتحديد المرجع يُلجأ إلى التحليل التداولي المتمثل في الإحالة واستدعاء المقام بعناصره المخاطب والمخاطب والمكان والظروف المحيطة بها¹⁹. ويمكن أن نستدلّ بالمثالين اللذين ذكرهما²⁰ فوكنيائي [Fauconnier 1984] مستعيدهما من نونبرغ [Nunenburg1978]:

*- المثال الأول:

غادرت عجة الجنبون دون تسديد الحساب.

*- المثال الثاني:

جورج صاند [George Sand] على الرفّ الثالث بدءاً من الأسفل.

فتدلّ عجة الجنبون في المثال الأول على الزبون الذي طلب أكلة عجة الجنبون. فعجة الجنبون هي قاذح الإحالة والزبون هو الهدف. ويدلّ جورج صاند²¹ في المثال الثاني على الكتب لا على مؤلفها. فجورج صاند هو القاذح والكتب هي الهدف. والقاذح والهدف يستدعيان رابطاً بالضرورة حتى يستقيم المعنى...

وتتمثل الروابط العرفانية في الدالة التداولية والعلاقات الرابطة بين العالم المتصور ونظيره في الواقع وعلاقات المجاز المرسل والأدوار والقائمون بها ومبدأ الاهتداء والفضاء الذهني وبناء الأفضية. وسنحاول في القسم التطبيقي الاشتغال على نماذج من النص القرآني نتبين فيه طواعية هذه النظرية من خلال روابطها العرفانية تجاوز القصور الذي يلقيه علم البيان في مقارنة إنتاج المعنى.

3- نظرية الفضاءات الذهنية في الخطاب القرآني:

لا إنكار لما ينهض عليه النص القرآني من مجازات واستعارات ومعان بعيدة المأخذ... ولا شك أن القواعد البلاغية مقاما ومقالا وبيانا في احتكامها إلى المنطق الشكلي قاصرة عن إدراك المعنى ومستويات إنتاجه. ولعل في نظرية الأفضية الذهنية محاولة لإدراك المعنى ومستويات إنتاجه ومراعاة مخاطبه. وكثيرا ما يحتمل مستويات خطائية يتحكم فيها سياق قول قرشي في زمن مخصوص.

وسنحاول الوقوف على نماذج تستدعي ضرورة الفضاءات الذهنية لإدراك عملية إنتاج المعنى.

3-1- قصور البيان الشكلي عن إدراك عملية إنتاج المعنى:

كثيرا ما يُردُّ ظهور إلى علم البيان عند علماء البلاغة إلى استنباط معاني النص القرآني. لكن ذلك لم يف الغرض. ودليل ذلك يتمثل في ظهور علوم شتى تختص بالنص القرآني في ذاته ودون غيره مثل علم التفسير وعلم التأويل وعلم أسباب النزول وعلم المقاصد وعلوم البحث في الانسجام في الخطاب القرآني. ورغم تعدد هذه العلوم باختلاف وجهات النظر التي تحتكم إليها مازال النص يحتاج إلى إدراك إنتاج المعنى وبنائه. وهو ما يدفع إلى الخلاف والتناقض...

فعلم البيان - بشتى فروعه مجازا واستعارة وكناية - قاصر عن إدراك المعنى.

وقد احتاج القرآن علوما شتى لتعوض قصور اللغة والبلاغة مثل علم التفسير وعلم التأويل وأسباب النزول وقسم كبير من علم الكلام وظهور ما يعرف بمبدأ الانسجام في الخطاب القرآني...

3-2- تشكلات الروابط العرفانية في النماذج القرآنية:

تتمثل الروابط العرفانية في الدالة التداولية والعلاقات الرابطة بين العالم المتصور ونظيره في الواقع وعلاقات المجاز المرسل والأدوار والقائمون بها ومبدأ الاهتداء والفضاء الذهني وبناء الأفضية. ويجعلها فوكونيائي عناصر رئيسة في بناء الأفضية الذهنية.

3-2-1- الدالة التداولية:

تعتبر الدالة التداولية سبيلا إلى تبين العلاقة بين فضاءين من خلال وسائط بين فضاءين. فيقيم فوكونيائي مبدأ عامًا للدالة التداولية يعود إلى أن "كل مفهوم يقتضي في تمثله فضاءين ذهنيين، يكون الواحد منهما أوليًا والآخر تابعا له"²².

ويتشكّل الفضاءان في فضاء قادح وفضاء هدف ففي القول القرآنيّ مثلا:

"وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا"²³

"هو الذي يتوقّاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار"²⁴

"وما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام"²⁵

وإذا تأملنا الفضاءات المكوّنة في هذه الأمثلة فسنعرف على أفضية قوادح وأفضية أهداف تقدّها روابط عرفانية متنوّعة وسنجد ذلك في الجدول التالي:

الفضاء القادح	الفضاء الهدف	الرابط
لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ	الجماع	عنصرا الملامسة والنساء
الغَائِطِ الْمَكَانَ الْمُنْخَفِضَ مِنَ الْأَرْضِ	قضاء الحاجة البشرية التبرّز	سياق التستر
يتوقّاكم	النوم	زمن الليل
جرحتم	الأعمال	زمن النهار
كانا يأكلان الطعام	قضاء الحاجة البشرية التبرّز	علاقة الأكل بقضاء الحاجة

فقد دلّ بالملامسة على الجماع ودلّ بالغائط وهو المكان المنخفض من الأرض بقضاء الحاجة البشرية (التبرّز). فالفضاء القادح يطابق الفضاء الهدف في ظاهره لكنّه يتنزّل باعتباره دالّا عليه قادحا له فلامسة النساء فضاء لغويّ قادح لفضاء لغويّ هدف هو الجماع. والفضاء اللغويّ المكان المنخفض [الغائط] قادح للفضاء الهدف [التبرّز].

ويتوقّاكم (بمعنى الوفاة والموت) فضاء قادح والفضاء الهدف النوم وجرحتم (بمعنى الجرح والقتل)

و"كانا يأكلان الطعام" فضاء قادح و قضاء الحاجة البشرية التبرّز فضاء هدف وعلاقة الأكل بقضاء الحاجة رابط عرفانيّ.

والمبدأ العام الذي يقيمه فوكونيائي أنّ فضاءين يتحكمان في بناء كلّ مفهوم فـ"كلّ مفهوم يقتضي في تمثيله فضاءين ذهنيين يكون الواحد منهما أوليًا [Pimary] والآخر تابعا له"²⁶

والعلاقة قاذح-هدف جزء من الأبنية العرفيّة التي تسهّل إجراء عبارة مقترنة بوحدة من مجال ما على وحدة مربوطة بها من مجال آخر.

3-2-2- العلاقات الرابطة بين العالم المتصور ونظيره في الواقع:

يقوم هذا الرابط على أنّ من القدرات العرفيّة أنّ يكون للانسان تمثيل لرؤية الذات للكون ورؤية الآخرين له من نفس الزاوية أو من زوايا أخرى. ويمثّل الأستاذ لزهو الزناد بما يجري التعبير عنه في المحاورات اليومية البسيطة مثل: اجعل نفسك مكاني وماذا عساك تفعل؟

لو كنت مكانك لفعلت كذا...²⁷

ويرى فوكونيائي أنّ من رؤى الكون ما تنشئه من عوالم متصورة تقابل العالم الواقع يكون ذلك في كلّ ما عبّر في اللغة عن الإمكان عموما مثل التميّي والترجي وأبنية الشرط...

والنصّ القرآنيّ قد توسّل هذا الرابط العرفاني ومن أمثلة ذلك:

- "وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاَهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ"²⁸

- "وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ"²⁹

- "لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ"³⁰

- "وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ"³¹

- "يا ليتني لم أشرك بربي أحدا"³²

- "يا ليتني متّ قبل هذا وكنت نسبا منسيا"³³

- "وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا"³⁴

- "يا وليتي ليتني لم أتخذ فلانا خليلا لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا"³⁵

والفضاءات تتنزل في هذه الأمثلة بين فضاء أساس وفضاء قرين. فينشأ فضاءان الأوّل عالم الأشياء زمن القول بما فيه من أشخاص وأوضاع وأحداث والثاني عالم آخر هو نفس الأوّل في كلّ أحواله ويبنى كلّ على حال جديدة.³⁶

والفضاءات تنزّل مثنى في كل مفهوم قوليّ وترتبط بين كلّ فضاءين أداة لغويّة مثل "لو" أو "ليني" وفي السياقين يقوم بناء الأفضية على الإمكان والاحتمال لأمر ممكن أو مستحيل الوقوع.

3-2-3- علاقات المجاز المرسل:

من العلاقات التي تنهض بالفضاءات الذهنيّة علاقات المجاز المرسل. فالفضاء الأوّل يتعلّق بالثاني باعتباره فضاء جديدا يدلّ عليه. وترتبط بين الفضاءين علاقة تنساق عادة في دلالة الجزء على الكلّ أو في الشيء إلى سببه ولا أدلّ على ذلك من لفظة "يد" التي تنزّل مجازا. فتندرج من زاوية مقوليّة في مجموعات ومفاهيم أكبر يمكن أن تكون الواحدة منها قادحا يحيل على وحدة هدف تنتمي إلى الإطار نفسه فـ"دلالة [يد] على العامل تقوم على رابطتين ثابتين في التجربة -حسب فوكونيائي- أولهما أنّ البشر فقط لهم أياد وثانيهما أنّ العمل البشري قائم على استعمال اليد" وهذا ما جعل اليد تحيل على العامل³⁷

ويد [كلمة مفردة] حضرت في النص القرآني منسوبة إلى الله في مواضع عديدة بنفس الصياغة لكنها اكتسبت معاني مختلفة... وقد أثارت جدلا كلاميًا بين الفرق تمثّلت في تجسيد صفات الله و"يد" يُقصدُ بها "الكفّ... اليد من أطراف الأصابع إلى الكفّ..."³⁸ وقد اختلف في وزنها والنسبة إليها³⁹. فاليد تنزّل باعتبارها مجازا مرسلا. "وهو مجاز تكون العلاقة فيه غير المشابهة. وسمّي مرسلا، لأنّه لم يقيد بعلاقة المشابهة، أو لأنّ له علاقاتٍ شتى. لكنّ تواتر المعنى رغم تصنيفها ضمن نفس الخانة من البيان ونفس العلاقات التي تقوم عليها. وستوسّل نماذج من القرآن حضرت فيها الكلمة منسوبة إلى الله. نتبيّن فيها عمليّة إنتاج المعنى باتباع الفضاءات القادحة والفضاءات الأهداف من خلال روابط دلاليّة عرفانيّة.

الآية	الفضاء القادح	الفضاء الهدف
"وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعْنُوا بِمَا قَالُوا" [المائدة 64]	يد الله	خير الله مُمْتَكٌ وَعطاؤه محبوس عن الاتساع عليهم
"إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ" [الفتح 10]	يد الله	قُوّة الله فوق قُوّتهم في نصرته رسوله
"قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ" [آل عمران 73]	يد الله	التوفيق للإيمان والهداية للإسلام

تحضر يد الله في الأمثلة الثلاثة حسب علم البيان مجازا مرسلا. لكن المعنى مختلف بين الآيات الثلاثة. فكانت الحاجة إلى الفضاءات الذهنيّة آليّة مثلى لإدراك المعنى... فالقادح "يد الله" نفسه لكن المعنى الهدف متنوّع تنوّع الروابط العرفانيّة.

3-2-4- الأدوار والقائمون بها:

تتنوع الأدوار ويتنوع القائمون بها. والدور مهما كان نوعه إنما يوجد في ضوء تصوّرنا لبنية الإطار الذي تكون فيه الوحدة مشاركة من ذلك أنّ دور الأبوة أو البنوة لا يُتصوّر إلّا في إطار الأسرة لكنّه يمكن أن يحمل قيما متعدّدة أن يكون عمّا وخالا وسائقا وديرا. فالدور أحادي القيمة مثل الأب في الأسرة والذات متعدّدة الأدوار أن يكون الأب زوجا ومديرا وأخا وعمّا وسائقا...⁴⁰ فكان الدور واحد والقيم متعدّدة. وفوكونيائي يعتبر في مثال أنّ المركّب الاسميّ [الرئيس] يعيّن أفرادا مختلفين حسب العصور والبلدان، وتتخذ وظيفة الدور [الرئيس] قيما مختلفة باختلاف هذه المقاييس⁴¹.

وفي النصّ القرآنيّ أمثلة كثيرة دالّة على ذلك منها "وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا"⁴²

فالدور [الرسول] والقيمة [يأكل الطعام] و[يمشي في الأسواق].

فالدور إذن يأخذ قيما مختلفة في فضاءات مختلفة. ولكنّ إسناد قيمة ما لدور ما ليست أمرا لازما، والروابط التي تصل الأدوار بقيمها إنما هي منفتحة...⁴³. ويعتبر فوكونيائي ذلك من أحسن ما يمثّل الاهتداء العرفانيّ الاختلافيّ.

3-2-5- مبدأ الاهتداء:

يمكن أن نستدلّ على مبدأ الاهتداء الذي يصوغه فوكونيائي في التعريف التالي: "يمكن لعبارة تسمى أو تصف وحدة معلومة من مجال ما أن تجري للإحالة على وحدة أخرى من مجال آخر، تسمّى الوحدة الأولى قادحا وتسمّى الثانية هدفا وعملية الإحالة اهتداء..."⁴⁴

ومن أمثلة ذلك في النصّ القرآنيّ " وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا"⁴⁵

1- القادح: يد مغلولة والهدف البخل.

2- القادح يد مبسوطة والهدف الإسراف.

ورابط الاهتداء اليد باعتبارها وسيلة العطاء.

والشرط في عملية الاهتداء⁴⁶ أن يكون المجال الثاني ممّا يمكن الاهتداء إليه عرفانيّا من المجال الأوّل وأن يكون التحقق ثابتا من الترابط بين القادح والهدف...

3-2-6- الفضاء الذهني:

يعتبر الفضاء الذهني بنية عرفانية تبنى فيها المجالات وتنظم وتترابط بأنواع من الترابطات بين المجالات. فالمتكلم ينشئ ما لانهائية له من الأفضية الذهنية في جميع الأقوال التي ينجزها من محادثات وقصص ونشرات أخبار...

ويكون بناء الأفضية الذهنية في جميع الأنشطة الرمزية لعل أبرز مثال لها النشاط اللغوي⁴⁷. والنص القرآني يقوم على الأفضية الذهنية التي تتشكل جملة المعلومات المنظمة المتعلقة بالمعتقدات والأشياء. ويتجلى الفضاء الذهني في النص القرآني في القول "إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَّمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"⁴⁸

فكل قول يفضي إلى تشاكل فضاءين. والقول في هذا الشاهد يحدث تصورات متتالية يمكن أن ترسم في خانة رابط الاهتداء الذهني.

3-2-7- بناء الأفضية:

تتمثل البناءة في آليات يستعملها المتكلم ليجرّ سامعه إلى تأسيس فضاء ذهني جديد. ويستعين بعبارات متحققة في الخطاب (مركبات أو وحدات نحوية) تؤسس فضاءً ابناً لفضاء أساس يترابطان بوجه ما. ولا تحمل بناء الأفضية معلومات عن الفضاء الجديد وتتكون من الأسماء والصفات وكل ما يعبر عن الزمان والمكان وغيرها من الأطر الافتراضية...

فالقول القرآني "... كَأَنْ لَّمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ"⁴⁹ فيه إحالة على اختلاف بين فضاءين الفضاء الأول الفقر والقفار الآن والفضاء الثاني الغنى بالأمس.

وفي القول "وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ"⁵⁰

فاستدعى [الليل] ليؤسس فضاء جديدا [النوم] في مقابل الوفاة كفضاء أساس. واستدعى [النهار] ليؤسس فضاءً جديداً تمثل في ارتكاب الذنوب والمعاصي في مقابل فضاء أول الجرح في الجسم.

والفضاء الأساس الذي يتشكل [الآن] يخالف الفضاء الابن الذي يحمل ملامح جديدة. والفضاءان يترابطان تداولياً.

4- خاتمة:

تمثل نظرية الفضاءات الذهنية نظرية عرفانية تعتمل للبحث في عملية إنتاج المعنى وقد أفادت شأنها شأن النظريات العرفانية من علم النفس وعلم النفس العرفي... ونشأت النظرية امتدادا لنظريتي الإحالة والتعيين بالمعنى التداولي... فالوظيفة الأساسية للبنية اللغوية تكمن في تحديد قابلية الاهتداء الاختلافية وفي استغلالها من زاوية عرفانية. فالبنية اللغوية في أساسها متشكلة تشكلا سياقيا مقاميا. وفوكونيائي يجد في ذلك مدخلا يثبت ضرورة البحث في ما يمكن للذهن أن يقيمه من عمليات ربط في مختلف السياقات وفي ما يكون للسياقات المختلفة من آثار في انبناء المعنى. ومن مظاهر الربط ما بين مجال وآخر أن يجري اللفظ الواحد أو العبارة الواحدة قادحا يحيل على وحدة أو هدف من مجال عرفاني آخر. فمبادئ عامة تحكم نظرية الأفضية الذهنية تقوم على تشكّل فضاءين في كلّ قول أو مفهوم. والفضاءان يربط بينهما رابط عرفاني. ويجمل

فوكونيائي هذه الروابط في الدالة التداولية والعلاقات الرابطة بين العالم المتصور ونظيره في الواقع وعلاقات المجاز المرسل والأدوار والقائمون بها ومبدأ الاهتداء والفضاء الذهني وبناء الأفضية...

والنصّ القرآنيّ يمثّل أقوالا بعيدة المجازات. ما يعكس ثراءً معنويًا مهمًا... والبحث في تشكّل المعنى الذي قصرت عن إدراكه المستويات البيانية يستدعي نظرية مثل الفضاءات الذهنية حتى يتسنى الوقوف على جملة من المعاني والفضاءات وإدراكها يتسنى جلاء العديد من اللبس الذي يسود التفسير والتأويل... فكانت محاولتي تطبيق الروابط العرفانية لهذه النظرية على نماذج من النصّ القرآني...

وتبقى لهذه النظرية شأن سائر الأبحاث اللسانية والتداولية والعرفانية مستويات تصلها بالنقد العربي القديم ما ينزّلها في عملية تأصيل مهمة... وتبقى في ذات الآن تشوبها عديد النقائص ما يولّد نقدا يؤسس لأبحاث جديدة. في خضمّ هذه التحديات تنزّلت محاولتي في قراءة للنصّ القرآني عسى أن ندرك المخفي من عمليات إنتاج المعنى...

قائمة المصادر والمراجع

المصدر:

القرآن الكريم

المراجع:

- بوشليق وهيبه، نظرية الفضاءات الذهنية المفهوم والإجراء مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب المجلد 3/ (عدد خاص) 2019.

- جاك موشليير وآن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمة مجموعة من الأساتذة الباحثين بإشراف الأستاذ عزالدين المجذوب، المركز الوطني للترجمة، تونس 2010.
- الذويبي (لطف)، قدرة نظرية الفضاءات الذهنية على تأويل الأبنية اللغوية، مجلة العلامة، ع3 دد، سبتمبر 2016.
- الزناد (لهر)، لسانيات عرفانية، الدار العربية للعلوم ناشرون دار محمد علي للنشر منشورات الاختلاف، الفصل الخامس: الأفضية الذهنية.
- ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، الطبعة السادسة، [دت].
- Fauconnier (Gilles), Mental spaces: Aspects of meaning construction in natural language. Cambridge university Press.

الهوامش والإحالات

- ¹ - جاك موشليير وآن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمة مجموعة من الأساتذة الباحثين بإشراف الأستاذ عزالدين المجذوب، المركز الوطني للترجمة، تونس 2010.
- ² - نفسه، ص.ص 159-184 مقال التداولية والإحالة والعوالم الممكنة والفضاءات الذهنية، ترجمة المكّي العايدي.
- ³ - نفسه ص 161
- ⁴ - نفسه ص 169
- ⁵ - نفسه ص 169
- ⁶ - لطف الذويبي، قدرة نظرية الفضاءات الذهنية على تأويل الأبنية اللغوية، مجلة العلامة، ع3 دد، سبتمبر 2016. ص 11
- ⁷ - نفسه، ص 12.
- ⁸ - لهر الزناد، لسانيات عرفانية، الدار العربية للعلوم ناشرون دار محمد علي للنشر منشورات الاختلاف، الفصل الخامس: الأفضية الذهنية، صص 198.
- ⁹ - نفسه، ص 201
- ¹⁰ - Geoffrey Nunberg (born June 1, 1945) is an American linguist, researcher and an adjunct professor at the UC Berkeley School of information. Nunberg has taught at Stanford University and served as a principal scientist at the Xerox Palo Alto Research center from the mid-1980s to 2000.
- (من مواليد 1 يونيو 1945) هو عالم لغوي أمريكي وباحث وأستاذ مساعد في كلية المعلومات بجامعة كاليفورنيا في بيركلي. درس نونبرج في جامعة ستانفورد وعمل كعالم رئيسي في مركز أبحاث زيروكس بالو ألتو من منتصف الثمانينات إلى عام 2000.
- 11 - القاموس الموسوعي للتداولية، ص 169.

12- Hui Liu & Yueqin Gao: Mental Space Theory and Misunderstanding , magazine of English Language Teaching, Published by Canadian Center of Science and Education ,Vol. 3, No. 4; December 201,p:75.

- ¹³ - القاموس الموسوعي للتداولية ص 162
- ¹⁴ - نفسه، 172.
- ¹⁵ - نفسه، 180.
- ¹⁶ - لزهرة الزناد، لسانيات عرفانية، ص 201.
- ¹⁷ - نفسه، ص 205
- ¹⁸ - وهيبه بوشليق، نظرية الفضاءات الذهنية المفهوم والإجراء مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب المجلد 3 (عدد خاص) 2019، ص 33.
- ¹⁹ - نفسه، ص 36
- ²⁰ - القاموس الموسوعي للتداولية، 209.
- ²¹ - جورج ساند George Sand الاسم المستعار لأمانتين أورو لوسيل دوبين Amantine Aurore Lucile : Dupin روائية فرنسية، من أسرة أرستقراطية. ولدت في باريس في 1804 وتوفيت في 1876.
- ²² - لزهرة الزناد، لسانيات عرفانية، ص 212.
- ²³ - المائدة: 6.
- ²⁴ - الأنعام 60.
- ²⁵ - المائدة 75.
- ²⁶ - لزهرة الزناد، ص 201.
- ²⁷ - نفسه ص 202
- ²⁸ - المائدة 65.
- ²⁹ - المائدة 66.
- ³⁰ - الحشر 21
- ³¹ - المائدة 81.
- ³² - الكهف 42.
- ³³ - مريم 23
- ³⁴ - الفرقان 27
- ³⁵ - الفرقان 28.
- ³⁶ - القاموس الموسوعي للتداولية، ص 183.
- ³⁷ - لزهرة الزناد، لسانيات عرفانية، ص 214.
- ³⁸ - ابن منظور، لسان العرب، طبعة دار المعارف، الجزء 15، ص 210
- ³⁹ - نفسه، ج 15، ص 212.

"وهي أنثى محذوفة اللام، وزنها فعل يدي، فحذفت الياء تخفيفاً فاعتقبت حركة اللام على الدال، والنسب إليه على مذهب سيبويه يدوي، والأخفش يخالفه فيقول: يدي كندي، والجمع أيد، على ما يغلب في جمع فعل في أدنى العدد. الجوهري: اليد أصلها يدي على فعل، ساكنة العين: لأن جمعها أيد ويدي، وهذا جمع فعل مثل فلس وأفلس وفلوس، ولا يجمع فعل على أفعل إلا في حروف يسيرة معدودة مثل زمن وأزمن وجبل وأجبل وعصا وأعص وقد جمعت الأيدي في الشعر على أياد... وهو جمع الجمع، مثل أكرع وأكارع... وقال ابن سيده: أياد جمع الجمع... وقال ابن جني: أكثر ما تستعمل الأيدي في النعم لا في الأعضاء... أبو الهيثم: اليد اسم على حرفين، وما كان من الأسماء على حرفين وقد حذف منه حرف فلا يرد إلا في التصغير أو في التثنية أو الجمع، وربما لم يرد في التثنية، ويثنى على لفظ الواحد. وقال بعضهم: واحد الأيدي يدا كما ترى مثل عصا ورحا ومنا، ثم ثنوا فقالوا يديان ورحيان ومنوان... قال أبو الهيثم: وتجمع اليد يديا مثل عبد وعبيد، وتجمع أيديا ثم تجمع الأيدي على أيدين، ثم تجمع الأيدي أيادي..."

⁴⁰ - لزه الزناد، لسانيات عرفانية، ص216.

⁴¹ - القاموس الموسوعي للتداولية، ص169.

⁴² - الفرقان 7.

⁴³ - القاموس الموسوعي للتداولية، ص170.

⁴⁴ - نفسه، ص171.

⁴⁵ - الاسراء 29.

⁴⁶ - لزه الزناد، لسانيات عرفانية، ص219.

⁴⁷ - القاموس الموسوعي للتداولية، ص170.

⁴⁸ - يونس 24

⁴⁹ - يونس 24.

⁵⁰ - الأنعام 60.

